

المعنى ومعنى المعنى في ضوء الانزياح الأسلوبي عند عبد القاهر الجرجاني من خلال كتابه "دلائل الإعجاز"

الدكتور : لمين جمعي
قسم اللغة والأدب العربي
كلية الآداب واللغات
جامعة سطيف 2 (الجزائر)

Abstract :

El jurjani considers grammar as the basis of language. It is, According to him, the bedrock for every sentence, paragraph or structure, moving the structure from its in flected pattern to its developed one. He connected grammar to rhetoric, which led to a stylistic structure based on the meaning of the system in its linguistic and relational aspect, contrary to appearances and modern linguists' approach.

ملخص:

جعل الجرجاني النحو القاعدة التي تبنى عليها اللغة، فهو عنده اللغة، وهو الأساس في بناء كل جملة أو نص أو تركيب متجاوزا في ذلك التركيب أو النص من نسقه الإعرابي الى نسقه المتطور فربط النحو بالبلاغة التي تولدت من خلالها صياغة أسلوية تقوم على مفهوم النظم في بعده اللغوي العلائقي؛ الذي تقاطع مع تجليات الرؤية و منهج اللسانيين المحدثين.

مقدمة:

أسهمت الدراسات الحديثة في توضيح آليات الدراسة اللغوية، وإجراءات المناقشة الفعلية لمجموع المفاهيم الواردة في تراثنا اللغوي، على رأسها تراث الجرجاني من خلال كتابه "دلائل الإعجاز"؛ الذي يحوي في ثناياه قضايا لغوية أسلوبية، رشعت "الجرجاني" لأن يكون سباقاً لعصره؛ حين تمثل مفاهيم لغوية دلالية فصلت في طبيعتها النظام اللغوي، وبيئت تداعيات قيمة خصت الكلمات، وتداعيات أسلوبية خصت القراءة الشعرية، حيث حقق افتتاحية نصية، و لا نصية، أخذت بالباط والمتلقي كعاملين مهمين و أساسيين يشاركان النص نفسه؛ في تمثل تلك الشعرية؛ والتي لُخصت عند المحدثين بأسلوبية الانزياح أو العدول؛ فهل يمكن أن نقول: أن طروحات "عبد القاهر الجرجاني" النصية ولا النصية (الخطائية) تؤسس لنظرية تأخذ أصولها من واقع عربي، تنبته إلى أسس ومبادئ فنية تقم الطرح التراثي تقيماً حديثاً، لا يصحب أبداً بالقصدية؟؛ ذلك أنّ جل القضايا اللغوية الماثورة في طروحات الجرجاني على رأسها "دلائل الإعجاز" لم تستهدف التطير الأسلوبية، بقدر ما استهدفت تفسير الإعجاز القرآني، في ضوء نظرية النظم؛ فكيف يمكن أن تُتمى طروحات الدرس الأسلوبية بمهارات الدرس البلاغي عند الجرجاني؟

1- النظام اللغوي عند عبد القاهر الجرجاني:

نظرة الجرجاني للغة نظرة مغايرة لمن جاء قبله، رغم تأثره ببعضهم؛ نظرة أبان عنها من خلال كتابه "دلائل الإعجاز"، الذي بلور فيه علاقة النحو بالبلاغة؛ هذه العلاقة التي تجسدت في مفهوم النظم، ولخصت وجه الرؤية الجرجانية للغة، ورسمت هذه العلاقة طريقاً في البحث اللغوي، تتجاوز من خلالها أواخر الكلم وعلامات الإعراب، وبيئت أنّ الفصاحة و البلاغة لا تتأثر إلا برعاية النظم، و اتباع قوانين النحو، هذه القوانين مثلت سبل الإبانة، و الإفهام، و يوضح الجرجاني ذلك بقوله: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، و تعمل على قوانينه، و أصوله، و تعرف مناهجه التي نُهجت، فلا تزيع عنها، و تحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها، و ذلك أنّا لا نعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه، غير أن ينظر في وجوه كل باب و فروقه"⁽¹⁾

لقد تجاوز الجرجاني فهمه للنحو الذي يبحث في أواخر الكلم إعراباً و بناء، هذا الفهم الذي كان سائداً منذ نشأة النحو، "فلقد كان عبد القاهر نحويًا خالصاً، له بالنصوص بصر وبالأساليب فقه، و بتفسيرها ولوع، و قد هداه بصره بالنصوص و فقهه و ولوعه إلى نظرية النظم، وهي التي تقوم على معاني النحو"⁽²⁾.

إنّ الجديد الذي أتى به عبد القاهر في نظريته؛ حين ربط بين البلاغة و النحو؛ و هذا ما لم يسبقه أحد من أخذ عنهم؛ فهو يرى أنّ التركيب النحوي للعبارات يشرح تلك العلاقات، فالنحو عنده علم يبحث في العلاقات التي تقيمها اللغة بين الأشياء؛ موضحاً و شارحاً تلك العلاقات كشرط نظامي لا

يقبل الاختزال البنيوي، لذا كان تصورهِ للنحو جديداً؛ ارتبط بعلم البلاغة؛ فلم يعد النحو عنده علماً ذا قواعد و قوانين جافة محصورة في بيان الإعراب و تفصيل أحكامه⁽³⁾، كما ربط الجرجاني الأسلوب بالنحو؛ لأنَّ الأسلوب في رأيه لا يكاد ينفك عن النظم، و لا ينفصل عنه، و من ثمَّ فالأسلوب عنده ضرب من النظم و طريقة فيه. و إذا كان الأسلوب كذلك، فإنَّه قد أضاف إلى النظرية العربية أصلاً لا ينفصل عنها؛ تستشف بعداً تأصيلياً واعداء، فالأسلوب هو النظم، و النظم لا يتحقق إلَّا إذا انضبط بالنحو، يقول الجرجاني: "واعلم أن ليس النظم إلَّا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو"⁽⁴⁾، فالنحو من هذا المفهوم هو طريقة العرب و أسلوب في كلامهم، فالنظم هو الأسلوب.

لقد انطلق الجرجاني، في وصف البنية اللغوية الإبلاغية؛ ببحثه في نظم الكلم؛ فعمد إلى ارتباط الكلمة المفردة بالوظيفة الإبلاغية التي تؤديها في سياق الكلام، و انطلقه من هذا الوصف هداً إلى أنَّ اللغة نظام لربط الكلمات، فسعى إلى اكتشاف هذا الارتباط، كما اهتدى إلى أنَّ الكلمة لا تكون دالة، و لا تؤدي وظيفة إبلاغية إلَّا إذا وردت في سياق، و لا فضل لواحدة على أختها إلَّا إذا ضمتَّ فيه؛ "فالألفاظ المفردة عنده هي مجرد علامات اصطلاحية للإشارة إلى شيء ما، و ليست للدلالة على حقيقة ذلك الشيء، و ما دام اللفظ المجرد إشارة إلى شيء ما؛ فإنَّ اللفظة المجردة لا يمكن أن تدلَّ على معنى محدد، و إنَّما تدل على معنى مجرد، و ما دامت تدلَّ على معنى مجرد؛ فهي تحمل عدَّة معاني، و من ثمَّ فلا معنى لها"⁽⁵⁾؛ فاللفظة عنده لا تؤدي معناها إلَّا إذا وردت في سياق؛ وشكلت في خلاله كلاماً متناسقاً يعبر عن مقتضى حال المتكلم، كما ربط الجرجاني بين اللفظ و المعنى و آتاه لا يأتي معنى بدون لفظ و لا لفظ بدون معنى، فقد استطاع، الجرجاني، على خلاف من سبقه، أن يوحد بين اللفظ و المعنى و عقد الصلة بينهما، فلو فرضنا كما يقول الجرجاني أن: "المعاني تكون تبعاً للألفاظ في ترتيبها، لكن محالاً أن تتغير المعاني، و الألفاظ مجالها لم تنزل عن ترتيبها، فلما رأينا المعاني قد جاز فيها التغيير؛ من غير أن تتغير الألفاظ، و تنزل عن أمكنتها علمنا أنَّ الألفاظ هي التابعة و المعاني هي المتبوعة"⁽⁶⁾.

كما ردَّ الجرجاني على من انتصر للمعنى على حساب اللفظ، و غلظ من ذهب إلى هذا الرأي و هو داء دوي؛ فهو ينكر أن يكون للمعنى فضلاً على اللفظ، و أن يكون للفظ مزية على المعنى، كما اهتدى إلى ترتيب الألفاظ في النطق و الكتابة بحسب ترتيبها في النفس.

و بعد كل هذا النظر و التحليل اللغوي؛ انتهى الجرجاني إلى أنَّ المعول عليه في شأن بلاغة الخطاب و أدبيته؛ هو أن ليس إلَّا: "نظماً، و ترتيباً، و تأليفاً، و تركيباً، و صياغةً، و تصويراً، و نسجاً، و تحبيراً"⁽⁷⁾، و نحن إذا أمعنا النظر في هذه الثنائيات وجدناها بدأت بالنظم و انتهت بالتحبير؛ فالجرجاني قد نسقها على نحو فيه دقة و توازن، فالقسم الأوَّل منها، كما هو واضح، "نظم، و ترتيب أي بحسب ما يكون المعنى في النفس؛ فينظم الكلام بحسب ما يريد المتكلم؛ فينتج عنه "تأليف، و

تركيب" الذي يكون تابعا للنظم والترتيب، والذي يمثل العلاقة الظاهرية بين أجزاء الكلام، و الثالث و الرابع "صياغة، و تصوير"، "نسج، و تحبير" تمثلان درجة الجوار بين الكلام؛ فهي علاقة باطنية.

إن جعل الجرجاني النحو القاعدة التي تبنى عليها اللغة، فهو عنده اللغة، و هو الأساس في بناء كل جملة أو نص أو تركيب متجاوزا في ذلك التركيب أو النص من نسقه الإعرابي، و إنما جعل الإعراب -عنده- مستفتحا لما انغلق من المعاني؛ إذ أنّ الإعراب هو مفتاحها "و أنّ الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، و أنّه المعيار الذي يبين نقصان كلام و ربحانه حتى يُعرض عليه" (8).

إن ربط الجرجاني اللغة بالصياغة، و التركيب بالنظم، إبانة منه عن حقيقة النحو، و كذلك ربطه بين المعاني والألفاظ، و من ثم ربطه الأفكار بالأصوات، كما اهتم بالوسائل التي تربط بين هذين العالمين؛ وراح يكشف عنها، و هو "الذي يؤدي إلى الاعتقاد بأن القاعدة النحوية ليست شيئا على الإطلاق، في حين أنّ النحو يرمي إلى أن يكون نظرية حقيقية لأحد الأبنية المعرفية التي يحققها المتكلم الخاص باللغة؛ نظرية لغوية جديدة بالاحترام بوصفها نظرية للمظهر الوحيد للميزة الأولية للكائن الحي؛ التي تعد الخاصة النوعية المحددة و المشتركة بين كل الأسوياء من البشر" (9).

إن ربط الجرجاني النحو بالبلاغة نشد من خلالها صياغة أسلوبية تقوم على مفهوم النظم؛ في بعده اللغوي العلائقي؛ الذي تقاطع مع تجليات الرؤية و منهج اللسانيين المحدثين، فاللفظ مفردا لا تخريجا حصريا لا يأخذه إلا بقدر تحديد الملامح العامة للمفهوم المعجمي؛ كبعد أول، غير فاصل بين رؤية الدرس و رؤية البحث محل الوصف، و حين يشدد الجرجاني على السياق فإنه ينعت اللفظ بطابع قيمي يوازي تداعيات القراءة اللسانية البنيوية التي حدت المحيط الألسني للعلامات في ضوء مفهوم النسق، و الذي يشرط بدوره- المحيط الألسني- المفهوم العلائقي، الذي لا يقبل بالمونيم مفردا، و إنما يقوم على معاينة الوصف النسقي المتظاهر شكلا مختزلا في مفهوم النحو، و عندما يشترط أيضا إحاطة ظرفية يعاين في الحقيقة أبعادا لا نصية تسم بنية تحتية تختزل مجموع الأدلة؛ التي تسبر منطقة الوصف و التوصيف معا، كتجاوز آخر مفهوم النعت المقيّد، إلى مفهوم النظام المنفتح و المتطور؛ الذي يقوم على أبعاد تداولية وظيفية؛ لا تقبل بالعلامة مجردة و الذي يأخذ بمفهومها نموذجا للقياس، و بالباحث و المتلقي عنصرين أساسيين في تكوين الدائرة الخطائية، و بذلك فالجرجاني عد سباق عصره في أوجه المقاربة اللغوية.

إن تعقب المفاهيم اللغوية عند الجرجاني؛ ليفضي إلى مسaire الطبيعة النظامية الائتلافية، التي تصوغ الفئة القاعدية صياغة تداولية؛ ذات أبعاد لغوية تنوع في المفهوم الحدائي بين الجرجاني و تطورات الحدائفة اللغوية؛ و من خلال تتبع سيرورة المعطى النظامي عند الجرجاني؛ والتي تسمح بإيجاز مبادئ الوصف التي ترتجى عند باحثها صياغة نظرية لغوية؛ تجيب عن إشكالات عدّة أهمها:

1- هل نمتلك -كعرب- نظرية لغوية عربية، تشاكل طروحات الجرجاني النظامية؟

2- هل تعتبر اجتهادات الجرجاني نموًا عربيًا في التاريخ اللغوي الغربي؟ وكيف يمكن بناء الصياغة العربية في ضوء الصياغة الأسلوبية الحديثة؟

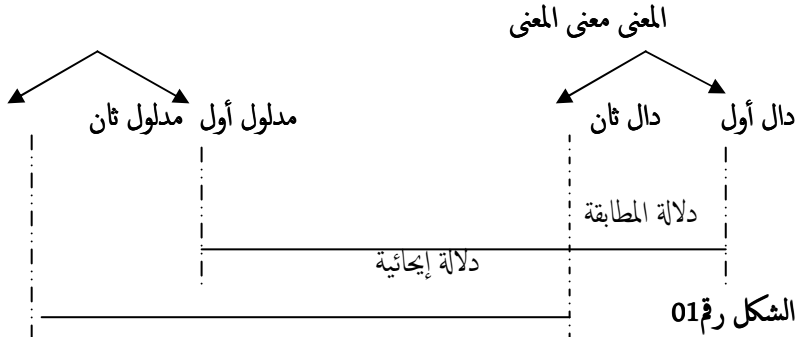
إن تأسيس البحث اللغوي على ثغرة إجرائية في قراءة التراث اللغوي؛ في العصر الحديث؛ اقتربت من تدبير انتهك خصوصية اللغة العربية؛ بوصفها نظامًا إعرابيًا مميزًا؛ لا يتأقلم و مجموع السمات اللسانية الحديثة؛ إلا في ضوء مفهوم الكلمات المخصصة في حد الكفاية.

2- شعرية الانزياح وأفقية التأويل عند الجرجاني:

من مسلمات الوعي التواصلى والكلامى وجود تنوع لغوي وأدائي ارتبط في الدراسات اللغوية القديمة بمصطلح الحقيقة والمجاز، الأصل والفرع، المثالي والمنحرف، وغيرها من أنماط الكلام و ضروبه، مما أدى إلى تمييز أنواع الخطابات وخصائصها وأساليبها، مع ضمان أداء اللغة الشعرية لوظيفة استثنائية تتيح، بموجبها، رخص التجوز في التشكيل اللغوي، والذي تزول فيه الرابطة المنطقية من الركن اللغوي؛ مما يتيح ما يسمى بلاعقلانية اللغة؛ أي اللغة الشعرية بموجبها تصبح لغة إيجائية، مجازية مطبوعة بوجدان صاحبها، ومتشعبة بشحناته وأحاسيسه، مما يجعل الخطاب يتجه إلى وجدان المتلقي فيسري فيه سريانا خفيا ينوء به عن ذهنية الخطاب التقليدي و قعقته اللفظية وأسلوبه الصريح المباشر؛ إن هذا التطم يخلق لنا لغة لازمة مختصة بوظيفة الخلق؛ التي تكتفي بذاتها وعناصرها؛ فتبني عالما شعريا وظيفتها فيه تكمن في السحر والإشارة؛ فهي لا تعبر ولا تبوح ولا تصرح وهذا مصدر غموضها⁽¹⁰⁾.

هكذا يمكن أن نلمّ شتات الخصائص النبوية لهذه اللغة في مصطلح شامل هو الانزياح بوصفه خروجاً فنياً عن الأنماط اللغوية الجاهزة المألوفة؛ فلقد كان الوعي بقضية اللغة ومفهوم الشعر المحفز لظهور وجهة نظر تنطلق من اللغة وحيثياتها؛ بوصفها الحامل الدلالي للفكر والوجود، وبعدها الجوهر الأساس للبيان، دون أن نخص به المفهوم الذي كان سائداً في المنظور البلاغي تصنيفات علم المعاني، إذ نخص به المعرفة التفكيكية والوعي البنيوي للتركيب، والصور و التعابير ونظام دولها، و فهم مستويات بنيتها وتكوينها وطبيعة تعالقاتها وتشاكلها؛ "فليس غريباً إذن أن تثير نظرية المعنى ومعنى المعنى عند "الجرجاني" سؤالاً نقدياً يرتبط بالمستوى العميق دون السطحي للإبداع الشعري؛ لأنها تحيل على معنى مدرك بالدلالة المباشرة، ومعنى آخر موحى إليه بدلالة غير مباشرة"⁽¹¹⁾.

وهو ما موضح في الشكل رقم (1):



قد أفرزت نظرية المعنى ومعنى المعنى عند "عبد القاهر الجرجاني" سياقات مفتوحة على النص الأدبي؛ وفق مبدأ تعدد القراءات وذلك بغرض اختراق تطابق الدلالة، فبالإشارة منه إلى أن الكلام يتم على ضريين مختلفين إذ يقول الجرجاني: الكلام على ضريين؛ ضرب أنت تصل به إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وضرب أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده⁽¹²⁾ وهذا إحالة مباشرة إلى أنه يوجد:

- كلام عادي ← ضرب أنت تصل منه إلى الغرض لدلالة اللفظ وحده.

- وكلام فيه عدول ← ضرب أنت لا تصل منه إلى الغرض لدلالة اللفظ وحده⁽¹³⁾.
فالشعرية عند "عبد القاهر" تكاد تنحصر داخل الخط الأفقي، الذي تتردد فيه مفردات معجمية؛ تربطها علاقات نحوية، أما الناتج الكلي، فهو ما تتفق فيه أجناس القول من شعر و نثر، والذي يمكن أن نطلق عليه (المفهوم الأول) الذي يشترك فيه عامة الناس، وعلى الدلالة الشعرية (المفهوم الثاني) الذي يتأثر من التفسير والتأويل على صعيد واحد⁽¹⁴⁾، فالفضية إذن هي رصد للكلام وانحرافه عن نسقه المثالي المؤلف وتتبع خصائص هذا الانحراف؛ أو الانتهاك الذي يحدث في الصياغة كما يسميه "ج.كوهين"⁽¹⁵⁾، وهذا إشارة إلى ما يسميه أعلام الأسلوبية "مستوى اللغة المثالي؛ في الأداء العادي ومستواها الإبداعي؛ الذي يعتمد إلى اختراق هذه المثالية وانتهاكها"⁽¹⁶⁾.

فما دلالة هذا الانزياح أو الانتهاك؟ ولما الخروج عن الأصل؟: "إن دلالة الانزياح هي دلالة خفية غير مصرح بها (معنى ثان = معنى المعنى)"⁽¹⁷⁾.

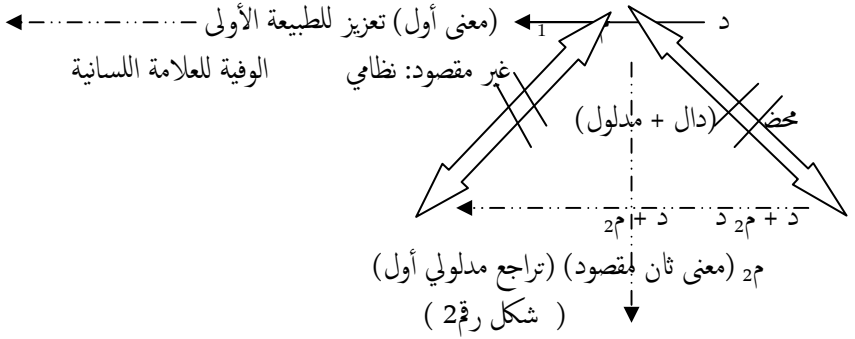
فمن الطرح السابق نلاحظ أن "الجرجاني" ميّز بين اللغة والكلام؛ وذلك من خلال تطرقه لظاهرة كلامية فصل فيها بين معاني الكلمات، ومعاني الألفاظ إذ اقترب من مفهوم "تودورف" في الفرق بين الدال الأول والمدلول الثاني، غير أنه أقم المتلقي -في تقسيمه للكلام- الذي يشترك مع الباحث في الفهم والاستيعاب والتأويل⁽¹⁸⁾.

إن طرح "الجرجاني" لنظرية معنى المعنى، يلتقي فيه مع "جون كوهن" حين يورد هذا الأخير مثالا يوضح فيه مبدأ الانزياح عنده: "الإنسان ذئب لأخيه الإنسان"؛ فهو يرى عدم ملائمة المسند

للمسند إليه؛ وهذا يكمن في أخذنا المعنى الحرفي "ذئب" أي "حيوان"؛ هذا المعنى الأولي الذي يحيل وبالضرورة إلى ثان؛ هو الإنسان الشرير، وهذا ما يوضحه الشكل الآتي، يرمز للدال بـ"د" وللمدلول بـ"م":

العلاقة بين م₁، م₂ متغيرة وتنتج أنواعا من المجازات، فالمشابهة تنتج الاستعارة؛ والمجازرة تنتج الكناية؛ والكلية تنتج المجاز المرسل⁽¹⁹⁾.

فمستوى اللغة الثنائية التي ترسم لنا تمثيلا انكساريا يكشف عن انزياح المعنى الأول الظاهر والحاضر وبقوة، والمعنى الخفي الحاضر بعد عمليات عقلية تحليلية تجسد نموذجا حاضرا وتصورا ذهنيا يعتمد حسيا وفق الشكل رقم (2):



ومن قبل هذا النص يذهب "الجرجاني" إلى توضيح ما ذهب إليه؛ حيث يضرب مثلا فيقول: "ألا ترى أنك إذا قلت: "هو كثير رماد القدر"، أو قلت: "طويل النجاد" أو قلت في المرأة "نؤوم الضحى" فإنك في جميع ذلك لا يفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ، ولكن يدل اللفظ على معناه؛ الذي يوجهه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثان⁽²⁰⁾؛ ووفق هذا التصور، فإن الرسالة تتموج وتنحرف، وعلى المتلقي أن يضبط موجاتها؛ وبذلك يصبح المعنى الأول إشعاعا دلاليا للمعنى الثاني.

وإذا عدنا إلى تصورات "الجرجاني" وجدناه يعمم شعرية العدول ويرى تجليها في الصور البلاغية مجازا واستعارة وتشبيها وتمثيلا، غير أن المحيط الشعري الذي يشد إليه العدول هو ذلك الخاص بعموده؛ وكذلك إمكانية التقبل؛ إذ هناك انساق مسبقة في التعبير والدلالة وضروب التصوير والسبك والتأليف⁽²¹⁾.

ويرى "جون كوهن" أن الجملة ذات الانزياح تقتضي بنفسها الانتقال من المدلول م₁ إلا المدلول م₂ لاستعادة الملائمة، فالأول يجعل الكلمة متنافرة، والاستعارة تتدخل لأجل نفي الانزياح المترتب عن هذه المنافرة التي تعتبر خرقا لقانون الكلام؛ بتحقيقها على المستوى السياقي؛ والاستعارة

خرق لقانون اللغة تتحقق على المستوى الاستبدالي⁽²²⁾.

والجرجاني قد أدرك هذين المستويين من التأليف: السياقي والاستبدالي؛ من خلال كلامه على ضروب الكلام من المجاز، وتعميم هذا الأخير على الاستعارة والكناية والتشبيه؛ حين يقول: "قد اجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح والتعريض أوقع من التصريح؛ وأن للاستعارة مزية وفضلا وأن؛ المجاز أبدا أبلغ من الحقيقة [...]"، اعلم أن سبيلك أولا أن تعلم أن ليست المزية- التي تشبها لهذه الأجناس على الكلام المتزوك على ظاهره والمبالغة التي تدعى لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره، ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إياها⁽²³⁾.

و يضرب على هذا مثلا: "أن الكناية أبلغ من التصريح، أنك لما كتبت عن المعنى زدت في ذاته، بل المعنى أنك زدت في إثباته فجعلته أبلغ وأكد وأشد... وكذلك المزية التي تراها في قولك " رأيت أسدا" فإنك أفدت تأكيدا وتشديدا وقوة في إثباتك له هذا المساواة وتقريرك لها، فليس تأثير الاستعارة إذن في ذات المعنى وحقيقته؛ بل في إيجابه والحكم به؛ وهكذا قياس "التمثيل" ترى أبدا في ذلك تقع في طريق إثبات المعنى دون المعنى نفسه"⁽²⁴⁾.

كما يرصد "عبد القاهر" في هذا النحو بعض البنيات البراقة في النسق الشعري؛ بما فيها من ضغوط دلالية موجمة إلى المتلقي، ربما كان أهمها ظواهر المفارقة و التوازن التي تتشابهك ديناميكيا مع غيرها من الظواهر لتفجر طاقات إيجابية متتابعة، إذ تتجاوز لغة المفارقة في قمة شعريتها حدود الإطار المعجمي الذي يقدم للمبدع بنيت التقابل في ثنائيات تلازمية على نحو مألوف يصوره التجريدي الآتي⁽²⁵⁾:

← أبيض أسود →

فالطرفان يتنافران، وهذا الشكل لا يشد "عبد القاهر" بالدرجة الكافية، وإنما يشده التعبير بالمفارقة عندما ينحرف عن هذا الشكل النمطي ليتحول إلى الشكل التجريدي الآتي:

← أبيض أسود →

"وهنا نكون أمام لغة شعرية لها كثافة تجذب النظر إليها، ولا تسمح باختراقها وهو شيء قريب إلى السحر حيث يختصر بعد ما بين المشرق والمغرب ويجمع ما بين المنكر والمعرف ويريك المعاني الممتلئة بالأوهام شبيها في الأشخاص المائلة، وينطق لك الأخرس ويعطيك البيان من الأعمى ويريك الحياة في الجماد"⁽²⁶⁾؛ فلغة المفارقة؛ بفعل النسق الذي احتواها تتحول إلى لغة تماثلية، حيث تتلاشى معها حدود الواقع؛ فتصبح هناك حدود أو منطقة دلالية معينة.

ويرى "عبد القاهر" أن هذه اللغة تستدعي عوامل تعبيرية تهيئ للبنية أن تميل إلى الشعرية مثل: التوازي الذي يحول الصياغة إلى دقات متوازية، ويتم هذا التوازي بمد المفارقة إلى أوسع نطاق تعبيرية، وذلك بتوزيع مفرداتها توليديا، فنضيق حدة التقابل، ليحل محلها المخالفة من مثل قول كثير:

وآتي وتهيأ بعزة بعدما *** تخلت مما بيننا وتخلت
لك المرتجي ظل الغمامة كلما*** تبوأ منها للمقبل اضمحلت⁽²⁷⁾

وقد يتم إنتاج التوازن من التماثل لا التقابل؛ فيكون عنصرا شعريا ممزوجا بالكثافة الإيقاعية المصحوبة له؛ فظاهرة التجنيس من أشدها تأثيرا من الإيقاع الصوتي والدلالي؛ فكانت لها أهمية في شعرية "عبد القاهر"؛ خاصة إذا كانت متوافقة مع حركة الذهن في وقفاته ومواقعه المختارة، لأنّ ضغوط البنية التجنيسية قد تكون ضعيفة على المتلقي، لا من حيث اهتزاز التوقع فحسب، بل من حيث اهتزاز الناتج الدلالي أيضا⁽²⁸⁾.

كما أولى "الجرجاني" في شعرية اللغة المجازية الحصة الأكبر معللا هذا بقوله: "إن الطبع مبني على أن الشيء إذا لم يظهر من مكان لم يعهد ظهوره منه؛ وخرج من موضع ليس بمعدن له؛ كانت النفس أكثر إعجابا به وأكثر شغفا"⁽²⁹⁾ فشعرية الصورة البيانية والمجازة اللغوية "هي بؤرة ومركزية الخطاب الشعري؛ لأنها تمثل البعد الجمالي والبنوي الوصفي لعالم كله جمال وسحر"⁽³⁰⁾.
و تأتي شعرية المجاز - غالبا - من الاتساع الذي يحدث خللا في علاقة الدال بالمدلول إذ يرد اللفظ منحرفا عن مدلوله بمسافة قد تقصر أو تطول؛ ولكنه لا يتطابق معه، فلو نظرنا إلى التعامل مع دال (الأسد) شعريا -مثلا- لوجدناه تجريديا يأتي على النحو الآتي:

(3)	(2)	(1)	
انحياز كلي	انحياز جزئي	تطابق	
	أسد أسد	أسد	الدال
جيل	رجل	أسد	المدلول

فالنمط الأول يخرج عن دائرة الشعرية، إذ ينعدم فيه الانزياح بين الدال والمدلول؛ فهو أولى باللغة المحايدة التي تنتمي إلى المجال الإخباري، في حين يدخل النمط الثاني والثالث الدائرة؛ نتيجة الفراغ الدلالي الواقع بين الطرفين، وبهذا يأتي النمط الثالث أوغل في الشعرية لوجود مساحة دلالية كاملة منحازة إلى الفضاء⁽³¹⁾.

هذا بالنسبة للمستوى التركيبي للغة، أما بالنسبة للمستوى السياقي الذي ذكره "جون كوهين" فإن "الجرجاني" قد تطرق إليه وذلك بذكره عدة سياقات أهمها: الحذف، والتعريف، والتشكير، والتقديم والتأخير.

فسياق الحذف؛ مثلاً، من الأنساق الشعرية التي يتم فيها العدول بالكلام إلى غيره الذي كان عليه؛ وقد عده "الجرجاني" من اللطائف التي تأنس لها النفس؛ فاللغة في الانزياح أو الخروج تبحث عن إيقاع مفقود تستأنس وجوده في سلسلة الاختراقات لتطابق الدال والمدلول⁽³²⁾، فخاصية اللطف لا تقوم على هذا فحسب، بل تتجاوزه إلى بناء تشكيل تعبري مواز للنص الشعري المنطوق، بمعنى آخر تساعد في خلق فضاء يحيط بالنص، ثم تعمل على إنشاء علاقة جدلية بينها، وبهذا يصبح أمام ثنائية نصية:

- طرفها الأول: ما يقوله النص بالفعل.

- وطرفها الثاني: ما يقوله النص بالقوة.⁽³³⁾

وبهذا تصبح ظاهرة الحذف أكثر مساهمة في تكوين الفضاء الشعري، وتوسيع دائرته على أقل الاحتمالات، يقول "الجرجاني" في هذا الصدد: "فإنك به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك انطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذ لم تبين"³⁴؛ وبهذا تعمل شعرية الحذف على مستويين اثنين:

مستوى الإحالة على المتلقي، ومستوى إشاري يحفز فيه المشار بوصفه علامة على مشار إليه غائب؛ ويوجي هذه العلامة باعتبارها تعمل في الغياب؛ وهنا إحالة إلى أن شعرية الحذف تعمل من خلال الكمون الدلالي؛ إذ طريق الشعرية هو الإضمار⁽³⁵⁾؛ فهو إذا قمة الجدلية بين الظهور والختفاء؛ من ناحية، وقمة الحركة بين ذهن المبدع (الخفي) وصياغته (الظاهرة) من ناحية أخرى⁽³⁶⁾؛ من تم اعتبر "عبد القاهر" هذا الأداء الشعري نوعاً من الفنية الخالصة التي تؤكد الشاعرية كما تولد الشعرية، فأنت مثلاً "تذكر الفعل، وفي نفسك مفعول مخصوص قد علم مكانه، إما بجري ذكر، أو دليل حال، إلا أنك تنسيه نفسك وتخفيه، وتوهم أنك لم تذكر ذلك الفعل إلا لن تثبت نفس معناه، من غير أن تعديه إلى شيء، أو تعرض فيه لمفعول ومثاله قول البحري⁽³⁷⁾ :

شجو حساده وغيظ عداه أن يرى مبصر ويسمع واع

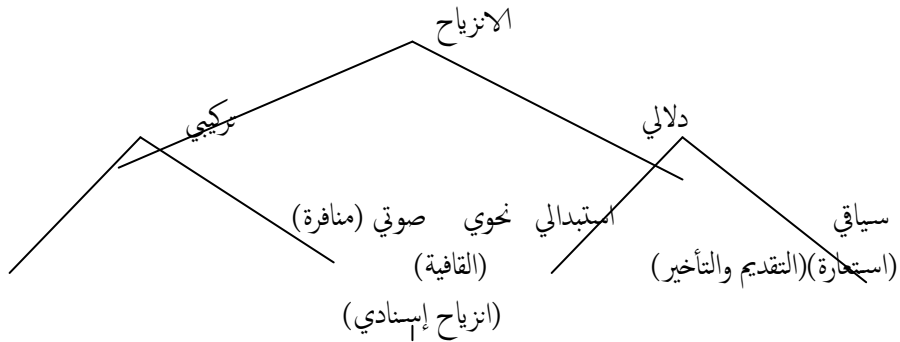
فجبر البذية يقتضي رد ما يخلق في فضاءها من دوال، إذ المعنى لا محالة: (أن يرى مبصر محاسنه، ويسمع واع إخباره وأوصافه)؛ فالمبدع يقصد من وراء الغياب أن يخلق في الفضاء غرضاً محددًا⁽³⁸⁾، والمغزى العام لشعرية الانزياح في سياق الحذف هو الغياب، "أي غياب الدوال من اللفظة التي تقتضيها الحاجة الفنية للمبدع"⁽³⁹⁾

وكذلك من السياقات التي تفتن لها "الجرجاني" سياق التقديم والتأخير "فشعريته تكمن في تحولات الدلالة التي تتولد بالصوغ الإبداعي الذي أنتجها، في حين يبقى حيز المعنى ثابتاً، وبالتالي فهي تهتم بالمبدع والمتلقي"⁽⁴⁰⁾.

وردا على من أهمل أسلوب التقديم والتأخير يقول "الجرجاني" "وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال "أنه قدم للعناية ولأن ذكر أهم، من غير أن يذكر، من أين كانت تلك العناية؟ وبم كان أهم؟" (41).

وتكون هذه الشعرية إذا قد انتهت لشتى ضروب التأليف التي تتميز بها الأساليب كون هذه الشعرية تبحث في أسباب انبثاق النصوص و كفياتها، ولا تكفي مجرد التسلسل اللفظي للخطاب العادي؛ والذي يضم أكثر من مجرد التواصل الكلامي وهذا ما يؤدي إلى حرية التأليف وفك القيود التي ما تلبث أن تفجر حدودا جديدة (42).

وهذا ما أشار إليه "جون كوهين" وحرص عليه "خيرية المتكلم ضمان لخلق وابتكار أساليب وصور وشعرية" ويقول موضحا ما ذهب إليه في شعرية التقديم والتأخير بقوله: "لو أنه كان يجب علينا أن نخترع الكلمات في كل مرة نتكلم فيها لكانت "اللغة المتميزة"، ولو كان الكلام معناه أن نحدد أنفسنا في ترديد جمل قيلت من قبل لكانت "اللغة المميزة" لا فائدة لها، فكل فرد يستخدم هذه اللغة ليعبر عن فكرة الخاص في لحظة ما، وهذا يتضمن حرية الكلام" (43) فمن هذا الكلام يعتبر انتهاك قواعد التركيب والحرية المطلقة في التأليف هي الهدف لكل عملية خلق ولكل عملية شعرية. وبالنظر فيما تقدم فإننا لا نكف عن ربط الانزياح باللغة الشعرية وبهذا يكون قد تولد تصور يخفي العديد من النوايا سواء في ما يتعلق بالبدال والمدلول داخل أو خارج مستوى لغوي آخر، أو نماذج الخطاب التي تستجيب لهذه العلاقة دون تلك (44) ويمكن إجمال ما تقدم من شعرية الانزياح في الشكل رقم (3):



شكل رقم (3)

مما سبق فإن لغة الشعر أو اللغة الشعرية هي الانزياح عن اللغة المعيارية؛ بعد هذه الأخيرة تمثل الكتابة في نسقتها المعيارية (القاعدي)، والانزياح عنها هو الدخول في كل ما هو غير شائع؛ ولا هو مركب في تراكيب وقوالب جاهزة يهدمها وإعادة بناءها وهيكلتها من جديد؛ "والنهوض بها وإعادة النظر في نظامها اللغوي، والإمساك بما يتضمنه من قوانين توليدية تسمح بتزيق ذلك النظام اللغوي المتعارف عليه؛ قصد خلق ذرى تعبيرية جديدة" (45).

والحق أن "عبد القاهر" لم يكن مطالباً بأن يتعامل مع مصطلح (الشعرية) كما نتعامل معه اليوم وربما اختياره لمصطلح النظم أدق - في رأينا- إذ يعبر عن تراوح خط المعجم وخط النحو مع إعطاء الأولوية للخط الثاني، من خلال العمل بقوانينه، و التحرك من خلال مناهجه، والحفاظ على رسومه، دون الإخلال بشيء من هذا كله؛ ويكون النحو الجرجاني إذا قد تجاوز المسائل التعقيدية إلى النواحي التشكيلية التي تقوم على التحول في (التعريف والتنكير)، والتحرك في (التقديم والتأخير)، والحضور والغياب في (الذكر والحذف) و(الإظهار والإضمار)؛ فليس شيء من ذلك إلا وهو داخل في دائرة النظم ودائر في فلك المزية والفضيلة⁽⁴⁶⁾.

خاتمة :

إنّ الطرح النظري الذي وسمه عبد القاهر الجرجاني بنظرية النظم؛ والتي هي تفسير للمعاني في ضوء شروط لغوية وغير لغوية وفق تداعيات قيمية تحضت الكلمات، وتداعيات أسلوبية تحضت القراءة الشعرية؛ تأخذ بالبات (المتكلم) والمتلقي والسياق؛ كأبعاد قيمية تؤسس لأسلوبية، تأخذ أصولها من واقع عربي، ذلك أنّ جل القضايا اللغوية المثبوتة في طروحات الجرجاني على رأسها "دلائل الإعجاز" لم تستهدف النظر الأسلوبية، بقدر ما استهدفت تفسير الإعجاز القرآني، في ضوء نظرية النظم؛ فالنظم هو تفسير للمعاني في ضوء شروط لغوية و غير لغوية؛ مع المتكلم الذي يسعى إلى إفهام الآخر؛ في ضوء مشاركة تأويلية تحاول الوقوف على المعنى الثاني.

إنّ القضايا التي طرحها "الجرجاني" في كتابه "دلائل الإعجاز"؛ تتم عن حادثة متقدمة؛ جعلت الجرجاني سباق عصره في رسم نظرية عربية تفند أسبقية الغرب في مجال الدراسات اللغوية و الأسلوبية؛ ثم إنّ مساهمة الجرجاني للطبيعة النظامية الانتلافية للغة والتي من خلالها صاغ الفئة القاعدية صياغة أسلوبية؛ ذات أبعاد نوعت في المفهوم الحدائي؛ بين آرائه وتطلعات الدرس اللغوي الحديث، ومن خلال طرحه للمعطي النظمي؛ فإنه أوجز مبادئ الوصف التي ترتجى، من خلال سيرورتها، صياغة نظرية لغوية عربية تمكّن من قراءة التراث اللغوي العربي في العصر الحديث، وتؤسس لتقديم نظرية أسلوبية تمايز النظرية الأسلوبية المعهودة، وبدراسة تنبّه إلى أسس ومبادئ فنية تقيم الطرح التراثي تقبها حديثاً، لا يُصحب أبداً بالقصدية.

الهوامش والمراجع:

- (1) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001م، ص60.
- (2) - محمد حساسة عبد اللطيف، النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، دار الشروق، ط1، 2000.ص
- (3) - طالب محمد إساعيل، البلاغة العربية، علم المعاني بين بلاغة القدامى و أسلوية المحدثين، منشورات جامعة تونس، بنغازي، ط1، سنة1997م،، ص56.
- (4)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص60.
- (5)- محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، ط/دار النهضة العربية، بيروت، 1979، ص 303.
- (6)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص241.
- (7)- المرجع نفسه، ص 34.
- (8)- المرجع نفسه، ص30.
- (9)- محمد حساسة عبد اللطيف، النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، دار الشروق، ط1، سنة2000م، ص31.
- (10)- محمد بنيني، الشعر العربي الحديث بنياته وإبداعاته، ج3، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1990، ص95.
- (11)- خيرة حمرة العين، شعرية الانزياح، دراسة في جماليات العدول، ط1، 2001، الأردن،، ص 82.
- (12) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 173.
- (13) - خيرة حمرة العين، شعرية الانزياح، ص 83.
- (14)- محمد عبد المطلب، قضايا الحدائة عند القاهر الجرجاني،، القاهرة، الشركة المصرية العالمية لوتنجان، ط1 1995، ص 94.
- (15)- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوية، دار توبال للطباعة القاهرة، ط الأولى، 1994، ص 268.
- (16)- المرجع نفسه، ص 268.
- (17)- خيرة حمرة العين، شعرية الانزياح، ص 83.
- (18)- المرجع نفسه، ص 86.

- (19)- حسن ناظم، مفاهيم الشعرية، دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1994، ص 118-119.
- (20)- خيرة حمرة العين، شعرية الانزياح، ص 84.
- (21)- خيرة حمرة العين، شعرية الانزياح، ص 91.
- (22)- حسن ناظم، مفاهيم الشعرية، ص 119.
- (23)- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 53.
- (24)- المرجع نفسه، ص 54.
- (25)- محمد عبد المطلب، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، ص 103.
- (26)- المرجع نفسه، ص 104.
- (27)- المرجع نفسه، ص 106.
- (28)- المرجع نفسه، ص 108.
- (29)- أدونيس، الشعرية العربية، دار الأدب، بيروت، ط2، 1989، ص 48.
- (30)- راجح بوحوش، اللسانيات وتحليل النصوص، عالم الفكر الحديث، الأردن، ط1، 2007، ص 151.
- (31)- محمد عبد المطلب، قضايا الحداثة عند عبد القاهر، ص 122-123.
- (32)- خيرة حمرة العين، شعرية الانزياح، ص 28.
- (33)- محمد عبد المطلب، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، ص 126.
- (34)- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 100.
- (35)- المرجع نفسه، ص 33-34.
- (36)- محمد عبد المطلب، قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، ص 118.
- (37)- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 106.
- (38)- محمد عبد المطلب، قضايا الحداثة، ص 119.
- (39)- خيرة حمرة العين، شعرية الانزياح، ص 29.
- (40)- المرجع نفسه، ص 41.
- (41)- المرجع نفسه، ص 78.
- (42)- المرجع نفسه، ص 42.
- (43)- المرجع نفسه، ص 42.
- (44)- المرجع نفسه، ص 151.

(45)- محمد لطفي اليوسفي، في بنية الشعر العربي المعاصر، تونس، ط، 1985، ص 24.

(46)- محمد عبد المطلب، قضايا الحدائة، ص 134.

المصادر والمراجع:

- 1- أدونيس، الشعرية العربية، دار الأدب، بيروت، ط2، 1989م.
- 2- حسن ناظم، مفاهيم الشعرية، دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم، المركز التقني العربي، بيروت، ط1، 1994م.
- 3- خيرة حمرة العين، شعرية الانزياح، دراسة في جاليات العدول، ط1، الأردن، 2001م.
- 4- راجح يوحوش، اللسانيات وتحليل النصوص، عالم الفكر الحديث، الأردن، ط1، 2007م.
- 5- طالب محمد إسماعيل، البلاغة العربية، علم المعاني بين بلاغة القدامى و أسلوية المحدثين، منشورات جامعة تونس، بنغازي، ط1، سنة 1997م.
- 6- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تخ: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2001م
- 7- محمد بنيني، الشعر العربي الحديث بنياته وإبداعاته، ج3، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1990م.
- 8- محمد حساسة عبد اللطيف، النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، دار الشروق، ط1، 2000م.
- 9- محمد حساسة عبد اللطيف، النحو والدلالة، مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، دار الشروق، ط1، سنة 2000م.
- 10- محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم و الحديث، ط/دار النهضة العربية، بيروت، 1979م.
- 11- محمد عبد المطلب، قضايا الحدائة عند القاهر الجرجاني،، القاهرة، الشركة المصرية العالمية لونجان، ط1 1995م.
- 12- محمد لطفي اليوسفي، في بنية الشعر العربي المعاصر، تونس، ط، 1985م.